دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	محاولة اقتراب من الفكر السياسي لكمال جنبلاط
المصدر:	شؤون فلسطينية
الناشر:	منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث
المؤلف الرئيسي:	سماحة، جوزيف
المجلد/العدد:	ع73
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1977
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	82 - 95
رقم MD:	628667
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الفكر السياسي، جنبلاط، كمال، السياسيون اللبنانيون، الحركات الثورية، المقاومة اللبنانية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/628667

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

جوزيف سماحة

محاولة اقتراب من الفكر السياسي لكمال جنبلاط

« بين الطائفيين من الجانبين في لبنان هناك هذا الجدار الفاصل والجامع في آن واحد ، هذا الموضع من تلاقي الفريقين الطائفيين واشتراكهم واشتباكهم ٠٠ هذا الفريق من المواطنين الذي يعيش في هذه « المنطقة النفسية » من اختلاط وتوحد الماء العذب بالماء المالح ـ للمثال وللصورة الفكرية لا اكثر ـ ما يزال يناضل ويكافح لاجل توسيع مجال التوافق وفسحة التشابك النفسية والتداخل الوطني المعنوي بين مختلف عناصر الوطن منذ قرن وربع قرن دون ان يتوصل اصحاب هذا الفريق وقادته الى نجاحات يطمأن اليها ٠٠ » (١) ٠

لقد سقط كمال جنبلاط شهيدا وهو على رأس « هذا الفريق من المواطنين » يحاول « توسيع مجال التوافق ٠٠ بين مختلف عناصر الوطن » وذلك قبل التوصل الى « نجاحات يطمأن اليها ٠٠ » ويذكر استشهاده بتلك الاسطورة التي تقول انه كتب على سيزيف ان يمضي عمره الابدي ناقلا الصخرة الى القمة ، ومعيدا نقلها بعد ان تتدحرج ٠

لقد حمل كمال جنبلاط الصخرة عام ١٩٥٢ الى ربع المرتفع ، لكنها سقطت ، فعاد وحملها عام ١٩٥٨ الى نصف المرتفع لكنها عادت وسقطت ، فحملها ثالثة في الاحداث الاخيرة الى ما دون القمة بقليل لكنها سقطت ، واسقطته ٠٠ مؤكدة ان قدرة لبنان القديم على اجتياح « المنطقة النفسية » التي يتحدث عنها كمال جنبلاط هي قدرة كبيرة ٠٠ فكيف اذا دعمها وضع عربي هو على ما هو عليه ٠

واذا كان كمال جنبلاط يتحدث عن « المحاولة الوطنية » من هذا الموقع الخارجي (الخارجي بالنسبة للعلاقات السياسية التقليدية ٠٠) فكيف هي حالنا

بعد غيابه ، وما هي طريقنا الى التعويض عن هذا الغياب ؟ !

الجواب على مثل هذه الاسئلة يستدعي معالجة تخرج بنا عن الموضوع ٠ ولكن احد عناصر الجواب هو ان تمثل « الجنبلاطية » بما هي ممارسة ونظرية في العمل الوطني اللبناني والعربي ، هو عامل مساعد للوطنيين في لبنان من اجل تحجيم خسارتهم لكمال جنبلاط ٠

واذا كان ثمة جانب مطموس لدى كمال جنبلاط فانه بالضبط هذا الجانب : كمال جنبلاط المفكر السياسي والمساهم في تقديم وجهة نظر وطنية ريادية حول المشكلة اللبنانية ٠

لقد كتب الكثير عن كمال جنبلاط الصوفي ، والمفكر الانساني ، والفيلسوف ، والشخص ٠٠ ولكن لم يكتب الكثير عن كمال جنبلاط القائد الوطني بكل ما لهذه الكلمة من معنى ان على صعيد الممارسة ام الفكر ٠

ولذلك ليس غريبا ان تكون كتاباته السياسية ، ومنها على وجه الخصوص المقدمة التي وضعها لكتاب « ربع قرن من النضال » ، غير معروفة بما فيه الكفاية ولا منتشرة ٠٠ حتى في الاوساط الوطنية التي قاد جنبلاط نضالها !

قبل اية محاولة لتظهير ملامح الفكر السياسي عند كمال جنبلاط تجدر الاشارة الى وجود اسهامات غنية جدا في تقديم وصف وضعي للمشكلة اللبنانية عند عدد من مثقفي اليمين اللبناني الذين تأثر بهم كمال جنبلاط في مراحل معينة من فكره (حتى ١٩٥٧ على الاقل) ٠

على رأس هؤلاء المثقفين طبعا ميشال شيحا الذي يبدي كمال جنبلاط اعجابه به في غير موضع من كتاباته والذي يبدو متأثرا به في مجمل محاضراته في « الندوة اللبنانية » بدءا من المحاضرة الاولى « رسالتي كنائب » عام ١٩٤٦ ، الى محاضرة « لبنان في واقعه ومرتجاه » عام ١٩٥٦ ٠٠

هذا التأثر بشيحا هو ، بمعنى من المعاني ، تأثر ببعض « التلامذة » ايضا الذين « طوروا » فكر واضع الاسس الرئيسية للايديولوجيا « اللبنانية » ٠

الا يبدو كمال جنبلاط قريبا مثلا ، في مراحله الاولى ، من فكرة « التاريخ ابن الجغرافيا ٠٠ فقط » التي طورها ، عن شيحا ، جواد بولس في محاولته التأريخ للبنان « حيث يلتقي ويتعانق ويتفاهم البحر والجبل ٠٠ » (٢) كما يجمع شيحا وبولس وجنبلاط على القول ٠

الا يبدو كمال جنبلاط متأثرا بفكرة شيحا عن الميثاق الوطني (طورها كمال يوسف الحاج في كتاباته وخاصة « فلسفة الميثاق الوطني ، او الطائفية البناءة ») ٠ « قد يختلف اللبنانيون ويتهدد الميثاق الوطني ولكن لا مجال الا

للوحدة والتعايش والاستمرار ٠٠ في الواقع لا نرتجي من لبنان اكثر بكثير مما هو عليه » (٣) ٠

الا يبدو كمال جنبلاط ايضا متأثرا بفكرة شيحا عن المتوسطية (التي اختص بتطويرها رينيه حبشي) وصولا الى حد اكتشاف ان لسكان المتوسط « طباع وعادات في التفكير والتصرف مشتركة واقتصاد مشترك وحياة وحضـــارة مشتركة ٠٠ وحتى الجنس البشري هو مشترك ٠٠ » (٤) ٠

الا يمكننا ان نكتشف لدى جنبلاط « لبنان هو بلد اللغتين في الواقع ٠٠ بلـد تعددت اللغات» (٥) ملامح النظرية التي طورها الاب سليم عبو عن ميشال شيحا: ثنائية اللغة صفة ملازمة للقومية اللبنانية لا بل احد عناصرها الرئيسية !

ان طرح اشكالية العلاقة بين كمال جنبلاط والمفكرين الذين اسسوا الايديولوجيا « اللبنانية » ، يوجب ، عمليا ، طرح اشكالية الصيرورة التاريخية ومواكبتـه لتطورات سياسية كانت تدفع بصاحبه ، اكثر فأكثر ، بعيدا عن المصالحة مـع « الصيغة » والوضع القائم نحو الاصطدام الجدي بهما ٠٠

ويفيد طرح هذه الاشكالية في استخراج القضايا التي بقيت تشكل عناصـر ثابتة في فكر جنبلاط ، لا بل عناصر ثابتة في تحليلات يسارية للمجتمع اللبناني تدمج ، بنجاح ، بين الحقائق العامة للاشتراكية العلمية والواقع اللبنانـــي ـ والعربي ـ الخاص ٠

كان جنبلاط في مرحلة من تطوره ـ من ١٩٤٦ الى ١٩٥٦ ـ صاحب تفكيـر « لبناني » منفتح على العروبة ، اصيل في ديمقراطيته (٦) ، متوسطي النزعة ، يحاول الوقوف على مسافة متساوية من الاطروحات الطائفية العروبية واللبنانية مع ميل واضح لتحميل « التهويمات الاقلوية والطائفية » (٧) مسؤولية الانعـزال عن « التعاون العربي » ٠

نظرته للواقع اللبناني على انه مجتمع متعدد الطوائف ، ارست مشكلته مـع نظام المتصرفية ، كانت تدفع به نحو تبني حلول تتروح بين تثبيت الواقع القائـم بعد حمايته بقوانين خاصة ، او تجاوزه نحو الغاء الطائفية السياسية ٠٠

وليس اسهل من اكتشاف ان هذا القدر من الاحترام للتركيبة الداخلية يوازيه من الجهة الاخرى موقف شبه متحفظ من قضية عروبة لبنان هو موقف ، كـان يخترق على كل حال سقف المواقف المعروفة يومذاك (مطلع الخمسينات)، ليطرح على نحو آخر ، حضاري ، ثقافي ، تعاوني ، صلة لبنان بالعالم العربي ٠٠ كمـا انه ليس اسهل من اكتشاف ان هذه الفترة كانت فترة الاستمرار في اســـار الاوهام التقليدية المعروفة للايديولوجيا اللبنانية : الهجرة ، الدور العقلانـــي المتوسطي ، المبادرة الحرة ، الديمقراطية من النمط الخاص ، والدور الخـــاص

لمسيحيي لبنان الاكثر تنورا وقدرة على استيعاب ونقل قيم الحضارة العلمانية الغربية ومعطياتها ٠٠ » (٨)

قلنا ان فترة ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦ هي مرحلة واحدة ٠ لكن ذلك لا يعني انها انتهت كما بدأت ٠ الحقيقة اننا نلاحظ من خلال دراستها ان ثمة تطورا تدريجيا ، تراكميا يحدث لدى كمال جنبلاط ، كما اننا نلاحظ ان تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، وآثار معركة ١٩٥٢ كانت بدأت تترك بصماتها على الزعيم الشاب وتؤهله اكثر فأكثر لاستقبال التطورات العربية الدراماتيكية في منتصف الخمسينات وللتعاطي بشكل جذري مع احداث ١٩٥٨ ونتائجها ٠

وفي هذا المجال يمكننا ان نعتبر فترة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ فترة انعطاف حقيقي في المسار الفكري لكمال جنبلاط وهو انعطاف رافق تجذيرا ملحوظا في المواقف السياسية جعل صاحبه يتقدم شيئا فشيئا ليحتل مكان الصدارة في النضال الوطني ، وليتميزه منذ الايام الاولى للعهد الشهابي عن القيادة « الوطنية » التقليدية التي ارتضت بتحسين مواقعها تحت ستار « لا غالب ولا مغلوب »٠٠ في حين انها استمرت مغلوبة عمليا ، وفي حين ان امكانية التسوية الحقيقية (هذه التسوية الديمقراطية المتوازنة التي سعى جنبلاط اليها طويلا) كانت متوفرة ٠

منذ تلك الايام ، حتى الاحداث الاخيرة ، وكمال جنبلاط يطور فهمه للوضع اللبناني مستفيدا من تجربته ، ومن امتلاكه للمفاتيح الرئيسية للحياة السياسية في لبنان ، ومن ثقافته الواسعة ٠٠٠ واخيرا من اتصاله بعالم الافكار العلمية وبالحركات والمنظمات والاحزاب اليسارية ٠

غير ان هذا التطوير لم يلغ مكتسبات المرحلة السابقة ، مرحلة التعرف الوضعي ، التجريبي ، على الواقع اللبناني ٠

ولم يكن كمال جنبلاط بحاجة لمن يقول له كم ان هذه المكتسبات ثمينة ، وهو الذي اتيح له ان يختبر صحتها واهميتها ، وبصورة شخصية ومباشرة ، في عمله السياسي ٠ غير انه لا بد من التأكيد ـ وهذا ما يفعله باستمرار في كتابيه « حقيقة الثورة اللبنانية » و « في مجرى السياسة اللبنانية » ـ على ان احداث ١٩٥٨ اثرت فيه تأثيرا عميقا ٠

بعد ١٩٥٨ لم يبدأ كمال جنبلاط يطرح حلولا « للمشكلة اللبنانية » مختلفة الى حد ما عن تلك التي كان يطرحها سابقا فحسب ، بل بات فهمه لهذه « المشكلة » اكثر دقة وموضوعية ٠

يقوم التحليل السياسي الذي طوره جنبلاط (بعد ١٩٥٨) عن الوضع اللبناني ، على المفاصل التالية :

١ ـ يكاد لبنان يكون اتحادا كونفدراليا بين الطوائف ٠ انه بلد ـ ملجأ مؤلف

من فسيفساء طائفية ذات اساس اجتماعي · انه يلتقي هنا ، عن حق ، مع الكثير مما يقوله منظرو اليمين (« لبنان بلد الاقليات الطائفية المتحدة » : شيحا) لا بل يستعير تعبير « كونفدرالية الطوائف » من جواد بولس ··· لكنه يختلف عنهم بقدر ما يتحدثون عن الاساس الديني المعتقدي لاستمرار لبنان على ما هو عليه ويتغافلون عن الاساس السياسي الاجتماعي لذلك : النظام السياسي والاقتصادي الذي يعيد انتاج الطوائف · (فضلا عن انه يختلف عنهم في الحلول المقترحة وهذا ما سنعود اليه لاحقا) · ويختلف جنبلاط عنهم كذلك في ملاحظته العوامل المناهضة للانقسام الطائفي والملازمة لكون لبنان بلدا « واحدا » تنشأ فيه وضمنه علاقات افقية على حساب الانقسامات الطائفية وغيرها ·

٢ ـ النظام السياسي اللبناني ، « البنية الفوقية » (اذا جاز التعبير) لهذا الواقع الطائفي هو نظام الطائفية السياسية الذي اسسه الاستعمار استنادا الى الخلافات الطبقية التي اتخذت منحى طائفيا منتصف القرن الماضي (بسبب الالتباس الاصلي الطائفي ـ الطبقي) · الطائفية السياسية هي اصل العلة وهي التي تجعل « خمس لبنان يحكم البلاد ·· » وتوزع الحكم « كأننا في نظام العشائر والبطون والافخاذ ·· » (٩) · والوجه الآخر لهذه الطائفية السياسية عزل لبنان عن محيطه العربي وتشكيل سد يصبح اختراقه كشفا لهذا « التكاذب المشترك » (كما يسمي « الميثاق الوطني » منذ ١٩٥٨) الذي « يلعب دورا في عدم تحرير الدستور والافكار السياسية من آثار المذهبية الدينية والاقطاعية الطائفية التي علقت بها وجرت اليها من رواسب العصور ·· »

بالاضافة الى ذلك فانه يعتبر الطوائف بمثابة « كيانات سياسية » لها مؤسساتها وقياداتها وافكارها ··

٣ ـ استنادا الى كل ما تقدم فان « التركيب اللبناني » يحمل تناقضات داخلية تؤهله للانفجار وتعيد وضعه على المحك في كل مرة يتعرض البلد الى ازمة جدية ·

ولا شك انه خلف التحذير الجنبلاطي من « الوطن القومي المسيحي » ومن « تقسيم لبنان » (عام ١٩٥٨) تكمن نظرية كاملة مؤداها ان هذا التقسيم قابل للتطبيق ·

بكلمة اخرى ان جنبلاط لا يعتبر (عام ١٩٥٨ وعام ١٩٧٦ ··) ان قضية وحدة لبنان اصبحت منتهية · انه يعتبرها معركة مستمرة واحد البنود الرئيسية على جدول اعمال النضال الوطني (او « النضال » الرجعي) وهي متلازمة بالضرورة مع قضية عروبة البلد التي يؤكد جنبلاط باستمرار ان قاعدتها البشرية هي قاعدة اسلامية اولا ·

هذه المفاصل العامة قد لا تختصر كل مقاربة كمال جنبلاط للوضع اللبناني ،

ولكنها تعكس الى حد بعيد الملامح العامة للاطلالة الجنبلاطية على هذا الوضع ٠

وتشكل هذه المفاصل الاساس « النظري » لسياسة كمال جنبلاط اليومية ، وهي التي جعلته ، ربما ، بالاضافة الى عوامل اخرى ، احد « امهر » السياسيين اللبنانيين واقدرهم على الدمج بين القوانين العامة للسياسة اللبنانية وبين العمل السياسي اليومي والمباشر ٠ ولذلك لم يكن من باب الصدفة الا يجد ناشرو مقدمة « ربع قرن من النضال » ، وهي اكمل صياغة قام بها جنبلاط لفكره ، لم يجدوا عنوانا لها افضل من « في الممارسة السياسية » ٠

ففي هذه المقدمة يصوغ جنبلاط « نظريته » بصفتها مرشدا لعمله السياسي ، ويكشف اساس هذا العمل ، وعنصر التماسك فيه وهو عنصر قد لا يبدو واضحا لمن يريد ان يأخذ الامور بظواهرها ٠٠ او بمبادئها !

قلنا ان هذه الخلفية تسند ممارسة كمال جنبلاط ويمكن ان نضيف انه يشتق منها عددا من المفاهيم والمقولات التي يصعب حصرها هنا ولكنها تشكل مجتمعة تراثا غنيا لا بد من تمثله ٠

● ينظر جنبلاط الى الدولة باعتبارها حدود اللقاء بين القوى الطائفية المؤلفة للبنان وهي مجموعة اجهزة منفصلة ، غالبا ما تكون فاسدة ، يحق لكل زعيم ـ وله ايضا ـ ان يستخدمها ارضاء لجمهور من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة لا يسعه ان يطيق الحرمان طويلا (راجع مقدمة « ربع قرن من النضال ») ٠

● يركز جنبلاط على اعتبار المارونية السياسية المتعصبة مصدرا لازمات البلد ٠ وهو يعدد باستمرار مصادر قوتها ويشير الى ان انفجار خلافها مع « الآخرين » يعود الى نقضها مقولة « التسامح » التي يفترض ان تشكل اهم قوانين الحياة السياسية في بلد مثل لبنان ، حيث التسامح هو « التعبير المحلي » عن الديمقراطية والتوازن ٠

● لجنبلاط احاديث مطولة حول ضعف الزعماء الستة واستعدادهم المبالغ فيه للمساومة « كان ولا يزال ضعف الزعماء المسلمين انهم يجهلون ما يجري في لبنان ووسط الشعب من صراع بين الوطنية السليمة والانعزالية التقليدية وبين الذهنية المتفتحة المتقدمة والذهنية المتحجرة والمتخلفة ٠٠٠ وبالتالي فهم يتوجهون دائما وبعد مرحلة كل صراع الى الزعامة الانعزالية ويدعونها للمشاركة متناسين الصف الوطني المسيحي ٠٠٠ » (١٠)

● يؤكد جنبلاط باستمرار ان من اسباب فشل اي تحرك وطني او تقدمي انشطار البلد الى شطرين وضعف التيار الوطني المسيحي ٠ « لو شارك المسيحيون بكثافة في الثورة لوقعت المعجزة التي نركض اليوم لالتقاطها ٠٠ » (١١) وهو يدرك انه من غير تنمية هذا التيار ، فان لبنان سيبقى محكوما بقانون « النمو المتفاوت » لقوى التغيير مما يهدد بحجز امكانية التغيير الفعلي ويحولها

باستمرار الى اعادة نظر جزئية بنظام الطائفية السياسية لا تلغيه من اساسه ، لعدم توفير قاعدة سياسية متوازنة مؤكدة ضمن الطوائف اللبنانية كلها ، بل تكتفي بتنقيحه وادخال تعديلات عليه ٠

والكلام الذي كنا نسمعه من كمال جنبلاط خلال الاحداث الاخيرة ، يحمل الحرقة نفسها التي كان يحملها كلامه بعد ١٩٥٢ و ١٩٥٨ : لو شارك المسيحيون لحدثت المعجزة ؟ ولكنهم ٠٠٠

هذا مع الاشارة الى انه كان يدرك بعمق مدى ارتباط « قلة » المشاركة هذه بنظام يوزع الامتيازات والحرمان بدرجات متفاوتة ٠ « تخضع الفئات الاسلامية في البلد ، على اختلاف مذاهبها ، للقهر بسبب الامتيازات الاقتصادية والمالية والسياسية والثقافية التي كان يستحوذ عليها ويمارسها بعض المنتسبين الى الطوائف المسيحية وخاصة العناصر المارونية منها ٠٠ » (١٢) ويروح جنبلاط على امتداد صفحتين من « المقدمة » يشرح التراتب الطبقي ـ الطائفي في لبنان وتاريخه ودور الاستعمار فيه ٠

ولعله من الضروري الاشارة الى واحدة من القضايا المهمة جدا لدى كمال جنبلاط والتي تعتبر مفتاح فهم الكثير من مواقفه ، لا بل مفتاح فهم سلوكه السياسي :

« تجدر الملاحظة ان النظام الطائفي المعمول به منع او حال دون تطور النظام السياسي على الاقل في مقابل تطور الليبرالية الاقتصادية ، وفي تمكين بعض الكفاءات من الصعود في سلم الرتبية الاجتماعية والقيادة السياسية في التمثيل النيابي وفي الحكم ٠٠ وقد شهدنا هذا السور من المال او اقسام واسعة منه تدعم بقاء القديم على قدمه وتجمد النظام السياسي وتزكي النظام الطائفي ٠٠ ويعود ذلك الى كون الفئات المستأثرة والغنية والفئات التي تنتسب الى المهن الحرة هي اكثرها من الطوائف المسيحية، هذه الطوائف التي فرضت في الانتداب قيام الكيان اللبناني وطبعته بطابعها وفرضت عليه امتيازاتها السياسية ، فجاء الامتياز الاقتصادي يؤثر بطبيعة الحال الامتياز السياسي » ٠ (١٣)

يلخص هذا الكلام فذلكة البرنامج السياسي المرحلي للاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية (آب ١٩٧٥) بوجهيه : التفاوت الاقتصادي ـ السياسي (لا نناقش هنا صحة هذا التفاوت) ، والهيمنة الطائفية ضمن النظام ٠ ويحتل هذا الاعتبار مكانة مهمة في فكر جنبلاط مما دفع الدكتور ادمون رباط الى اعتبار مقدمة البرنامج المذكور (التي تستعير هذه الاطروحة وتطورها) الوصية السياسية الحقيقية لكمال جنبلاط وافضل ما كتبه طيلة حياته ٠

هذا الوعي الحاد لدى كمال جنبلاط للمستويات المختلفة للتشكيلة اللبنانية عكس نفسه على ممارسته على غير صعيد ٠ فعلى المستوى الاقتصادي مثلا كان

الحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة جنبلاط احد أبرز المناضلين في سبيل تحسين حياة الجماهير والدفاع عن مطالبها الاقتصادية والاجتماعية · أما على الصعيد السياسي فان كمال جنبلاط كان يدرك بعمق ، انه في مجتمع مثل المجتمع اللبناني

وفي نظام موروث و « سريع العطب » مثل هذا ، لا يمكن الركون الى النضال الديمقراطي وحده وان امكانية « وضع العنف على جـــدول الاعمال » واردة بالضرورة · وله في ذلك محاضرات عديدة ، ومواقف تشير الى انه كان يرفض المشاركة في أشكال من الاحتجاج والمعارضة عندما يكون الظرف مناسبا لاشكال ارقى واكثر قدرة على الحسم ·

لا يغير هذا من كون كمال جنبلاط « رجل تسوية » · لكنه يفيد من تحديد موقفه من اية تسوية وفي تأكيد ، اولا ، تفاهة الحديث عن « اصلاحيته » وثانيا كونه يتميز عن رجال السياسة اللبنانية ، الذين تعني التسوية بالنسبـــة اليهم الاستسلام ليس الا !!

● اخيرا تتميز الكتابات الجنبلاطية حول الوضع اللبناني بهذا الحيز المعطى باستمرار ، لدور العوامل الخارجية والعربية في تقرير مصير اي صراع ورسم مساره · ويصل الامر بعض الاحيان حد اغفال دور العوامل المحلية لصالح ابراز اثر المصالح الاستعمارية ، او الارادات العربية · ولعله من غير الضروري اثبات ذلك بأقوال لجنبلاط طالما ان كتاباته كلها مخترقة بتأكيدات من هذا النوع ·

رسمنا في ما سبق ملامح الفهم الجنبلاطي للوضع اللبناني ، والافكار العامة التي تنظر لممارسته وترشدها ولذلك ليس أسهل من استخلاص تصور لبنان الذي كان يريده كمال جنبلاط ·

باختصار كان مؤسس الحزب الاشتراكي يريد لبنان بلدا عربيا ديمقراطيا بكل ما تنطوي عليه هاتان الكلمتان من معان ومن التزامات سواء بالنسبة للقضيـة الفلسطينية ام بالنسبة للحريات الديمقراطية السياسية والاقتصادية والصحافية والشخصية والنقابية ···

على ان العنصر الذي يحتاج الى جـــلاء ربما هو الموقف الجنبـلاطي من الموضوع الاقتصادي ـ الاجتماعي والتصور المطروح حيال النظام القائم ·

قد يحتاج هذا الامر الى معالجة على حدة ولكن يمكن هنا بسرعة تقـديم عناصر اولية للموقف الجنبلاطي في هذا الخصوص ·

تختلط لدى جنبلاط الدعوة الى اقتصاد طبيعي ، حرفي ، ما قبل رأسمالـي والدعوة الى حماية الصناعة اللبنانية وتطويرها وحماية المستوى المعيشي لليد العاملة ·· وهو يعبر في ذلك عن موقع اجتماعي معين (الزعامة الريفية ذات

النزعة الوطنية الاستقلالية ٠٠) وعن موقف شديد السلبية ، اجتماعي ، اخلاقي، ضد آثار نظام الخدمات ٠

ولعله ، في هذا المجال ، كما في بعض المجالات الاخرى ، شديد العدوانية حيال فهم للبنان (شيحا وتلامذته ٠٠) يريد للبلد ان يكون مجرد محطة ، وصلة وصل ، وممر ٠٠

« لبنان جسر وممر وصلة بين الشرق والغرب ، بين حضارة اوروبا وحضارة العرب واسيا ، هذا المفهوم للقضية اللبنانية الذي يروجون له في الاوساط اللبنانية المختلفة وتساهم في اشاعته والدعاية له الابواق الاجنبية ذاتها كان ولا يزال عقبة وحائلا دون توحيد مفاهيم الشعب اللبناني للوطن والدولة لانه كرس كواقع المعاهد الاجنبية في لبنان ، واقع اللغتين ، والحضارتين ، والاستقطابين والقوميتين ، والدينين ، والطائفتين ، والشعبين ، وبرامج التعليم المتعددة ٠٠ لا يقوم وطن على حافتي جسر وعلى فاصل وعلى ممر و « عبارة » الجسر موضع لتلاقي بلدين وقوميتين وشعبين ولا يشكل قاعدة مكانية وزمنية لدولة ولامة ٠ لا يبنى بيت لجماعة على قارعة الطريق العامة ٠٠ » (١٤) ٠

الملاحظ ان ما نقلناه عن كمال جنبلاط يشكل ، الى حد بعيد ، التوجهات الاساسية للحركة الوطنية اللبنانية كما تبدت سواء في ممارستها خلال الاحداث الاخيرة ام في وثائقها المهمة ، وعلى رأسها « البرنامج المرحلي » و « خطة المواجهة الوطنية ٠٠ » ٠

ومن المطلوب ، في مجال ، الاشارة الى هذه العلاقة بين كمال جنبلاط والحزب التقدمي الاشتراكي من جهة ، ومجموع الفصائل الوطنية والتقدمية من الجهة الثانية ، المطلوب تبديد بعض الاوهام العالقة في ذهن الكثيرين ٠

وفي طليعة هذه الاوهام القول بأن اليسار اللبناني يتلطى وراء كمال جنبلاط لانه زعيم كبير ذو نفوذ جماهيري وهو انما يقبل بتغطية اليسار والحركة الوطنية لانه يريد ان يناور وينتزع مكاسب محدودة اضافية ٠ ينشأ هذا الوهم ـ اذا سلمنا بحسن النوايا ـ من جهل عميق بطبيعة المجتمع اللبناني وطبيعة ا يمثله جنبلاط ، ومن سوء ادراك مطبق لنقطة التصادم بين التشكيلة اللبنانية في طورها الراهن وبين كمال جنبلاط وما يمثله ٠

نبادر الى القول ، قبل اي شيء ، ان زعامة كمال جنبلاط للحركة الوطنية لم تكن صدفة او مفارقة ٠٠ انها زعامة بنيت على مر السنين ، وتدعمت ، واصبحت جزءا من الحياة السياسية في لبنان ٠

وليس اسهل من اكتشاف الصلات العميقة التي تشد الفكر السياسي الجنبلاطي الى الموقع الذي يحتله صاحبه ٠

كمال جنبلاط هو الزعيم الذي أعاد لطائفته الدرزية وزنها السياسي في لبنان٠

هذا الوزن الذي تعرض لنكسة اولى مع نظام المتصرفية الذي وضع حدا ، منتصف القرن الماضي . للحكم الدرزي في الجبل وفتح الابواب مشرعة امام المزيد من اخضاع لبنان للمخططات الاستعمارية ٠

كما تعرض الوزن لنكسة ثانية مع اعلان دولة لبنان الكبير (١٩٢٠) التي ورثت نظام التمثيل السياسي السابق بعد ادخال مجموعات كبيرة من السنة والشيعة والارثوذكس في عداد الرعايا اللبنانيين ٠ ففي هذا العام قذفت الطائفة الدرزية الى المرتبة الخامسة او السادسة في سلم التراتب الطائفي وبات واضحا ان قطبي المعادلة اللبنانية هما الموارنة والسنة ٠

اي انه في خلال حوالي السبعين عاما انتقلت الطائفة الدرزية من حكم الجبل الى تشكيل طائفة غير رئيسية في « لبنان الكبير » ٠

ولكننا نشهد ، مع الزعامة الجنبلاطية ، ومنذ منتصف الخمسينات عودة الدروز الى ان يكونوا طائفة لها « حق النقض » (بالاضافة الى الموارنة والسنة طبعا) ٠

صحيح ان الطوائف الرسمية في لبنان ١٧ ولكنها لا تتمتع كلها ، بحكم الوزن والتقليد (الناجمين عن عوامل عديدة لا مجال لذكرها) بالقدرة على التأثير المتساوي على القرار السياسي الرسمي الذي يفترض ان يمثل حدود لقاء القيادات السياسية للطوائف اللبنانية ٠

وبهذا المعنى فان لبنان اشبه ما يكون بمجلس الامن : فيه عدد من الدول لكن بعضها فقط له « حق النقض » ٠

ولعل هذا الحق ــ الذي يتمتع به الموارنة بامتياز في لبنان ــ هو دليل تحول الطائفة المعنية الى طائفة ذات وزن مقرر او شبه مقرر في السياسة اللبنانية ٠

واذا كان الدروز مع كمال جنبلاط قد عادوا ليصبحوا طائفة اساسية فليس لان جنبلاط اضاف الى وزنهم العددي والسياسي الوزن العددي والسياسي للحركة الوطنية (كما انه فعل العكس ايضا ٠٠) فحسب بل لانه استطاع ان يجير العمق العربي لصالحه ، ويصبح ناطقا باسمه في لبنان ٠

هذه الزعامة الجنبلاطية الراسخة ضمن الدروز ، وما اتاحته من اطلالة على الطوائف الاسلامية الاخرى ، وما اضيف اليها بفعل الخصوصية الطائفية الفريدة للجبل ودوره المميز في التاريخ اللبناني وبفعل الامتدادات الحزبية الوطنية الاخرى ٠٠ هذه الزعامة كانت مضطرة ، بفعل نظام الطائفية السياسية على ان تدخل ضمن التركيبة من « خرم الابرة » المفتوح لها ٠٠

ولذلك فانها كانت ، بقدر ما تكبر وتمتد ، بقدر ما تستشعر ان الثوب المفصل لها ، حسب قوانين السياسة اللبنانية ، يضيق عنها ويكاد يخنقها ، وانها ، ولو كانت تسيطر على « ٧٠ بالمئة من الارض و٨٠ بالمئة من الشعب » (كما كان يقول جنبلاط عام ١٩٥٨) فانها عاجزة عن ترجمة هذا الوزن ما لم تتم الاطاحة بنظام التمثيل السياسي الطائفي ٠

لقد وجد جنبلاط نفسه على رأس حركة متناقضة مع التركيبة اللبنانية ٠ وكانت له ـ ولنا ، وللبنان المستقبل ايضا ـ مصلحة اكيدة في نسفها واعادة صياغة العلاقات السياسية على قاعدة اكثر ديمقراطية : الغاء الطائفية السياسية مطلب جنبلاطي منذ ثلاثين سنة !

بهذا المعنى كان جنبلاط عنصر تثوير للوضع اللبناني ولذلك كانت تبذل المحاولات الحثيثة لاستعادته (تصريحات صائب سلام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣) بصفته ابن العائلة العريقة ، شرط ان يترك ، على بوابة الحكم ، برنامج نقض نظام الطائفية السياسية وكل محاولات تزعم الشارع الاسلامي والتعبير عن مصالح القوى الديمقراطية في الوسط المسيحي ٠

« ان مثال الثوري والعربي الذي يشير اليه كمال جنبلاط من أجل الحاضر والمستقبل موضوع في سياق استمرارية تاريخ السكان الجبليين ٠٠ كذلك فان بعض عبارات جنبلاط تستعيد صدى تطلعات باقي العالم العربي وثقافته ٠٠ ان منطقة الشوف تبدو في قلب التاريخ اللبناني ٠٠ كما يبدو كمال جنبلاط في قلب قومه وطائفته ٠ انه يشهد من أجل حقيقة لبنانية ٠٠ ووجه اخر للبنان » (١٥)٠

هذا الكلام الواضح للمؤرخ دومينيك شيفالييه (صاحب اهم كتاب حتى اليوم عن تاريخ جبل لبنان في القرن التاسع عشر ٠٠) يحتوي على عدد من المفاهيم لا بد من تظهيرها :

١ ـ هناك تقدير خاص لهذه الزعامة الخاصة : زعامة الدروز وزعامة الجبل٠

٢ ـ هناك اشارة واضحة الى كون دروز الجبل ، تاريخيا ، امتداد للتطلعات العربية وللثقافة العربية ٠

٣ ـ هناك تأكيد على الدور الخاص للجبل في التاريخ اللبناني ٠٠ هذا الكيان الذي ركب اصلا حول الجبل ٠

٤ ـ هناك ادراك للخصوصية الجنبلاطية القادرة في وقت واحد على ان تشهد للبنان « اللبناني » وللبنان العربي ٠

والحقيقة ان هذه المفاهيم صحيحة تماما ويمكن اكتشافها من اية قراءة متأنية بعض الشيء لكتابات جنبلاط ٠٠ وممارساته ٠

ان زعامة الدروز والجبل تعني اول ما تعني الزعامة على منطقة سياسية ـ جغرافية هي غاية في الاهمية سواء كان المشروع الذي يستهدف عروبة لبنان مشروعا هجوميا تسلطيا ، ام مشروعيا دفاعيا انكفائيا ٠٠

ان الجبل هو في قلب المعركة من أجل عروبة لبنان ويستحيل على اى فريق ان يدعي هيمنة ما على لبنان ما لم يوطد هيمنته على الجبل ٠

ودروز الجبل هم تاريخيا حفظة عروبة المنطقة ، سياسيا ، على الاقل ٠ صحيح انه ينطبق عليهم الى حد ما صفة « الاقلية » الوافدة الى الجبل ، لكن الفرق بينها وبين الموارنة هي انها اقلية اسلامية وقفت باستمرار ضد الغزوات الاجنبية للمنطقة ، هذه الغزوات التي وجدت في الموارنة حليفا لها ٠

وبهذا المعنى تصبح الزعامة الجنبلاطية للدروز وللجبل امتدادا لتاريخ وطني صارع باستمرار ضد تيار الانعزالية اللبنانية ٠ ويكفي ان نتذكر تأكيد جنبلاط الدائم على « دور هذه الامارة العربية على الساحل اثناء الحكم الدرزي » ٠ لنكتشف كم انه مهتم ـ في سياق تاريخ بأكمله ـ للحفاظ على عروبة الجبل اولا وعلى منع تحوله الى شوكة في خاصرة الوطن العربي ٠

ولكن ما يجب ان يقال في هذا المجال هو ان هذه الخصوصية الدرزية (أقلية عربية في الجبل) التي وضعت جنبلاط في موقع الناقد لاي اتجاه عروبي طائفي ، وفي موقع المطالب بنهوض عربي على أساس ديمقراطي وحتى علماني ٠

ويمكننا ان نلحظ في العديد من كتابات جنبلاط مواقف التحفظ على النزعة القومية العربية الاسلامية لصالح الدعوة الى حركة عربية ديمقراطية يصح ، في حال غيابها ، التردد ، من موقع وطني وديمقراطي ، حيال الاتجاهات الوحدوية ٠ ولنا في مواقف جنبلاط من التيارات التي ازدهرت في فترة تصدع الامبراطورية العثمانية ما يؤكد لنا على هذا الطابع الخاص لفهم قضية العروبة والديمقراطية٠

فهو يمتدح مثلا فارس نمر واضرابه من « العلمانيين » المعادين للدولة العثمانية ويهاجم تيار « الانكماشية المارونية » ويتغافل عن ذكر التيار الاسلامي المعادي للغرب والمستعد لتجميد تناقضه الثانوي مع العثمانيين مقابل اندلاع المواجهة المشتركة مع الامبريالية ٠

ليس من الضروري التفصيل في هذا الموقف الجنبلاطي ودلالاته ٠ فكمال جنبلاط يبقى في النهاية القائد السياسي لاقلية طائفية ، (ولحركة وطنية عريضة ذات قاعدة اسلامية وصدى عربي ٠٠) عرفت كيف تتجاوز وضعها ، وتنتقل الى الاندماج في المعركة القومية متخلية عن الكثير من تحفظاتها ٠

وليس غريبا والحالة هذه ان تكون بعض التحفظات الجنبلاطية احترقت في لهيب معركة السنتين التي تحول خلالها كمال جنبلاط الى قائد قومي حقيقي ٠

واذا جاز لنا ان نتحدث عن خصوصية القيادة الوطنية الجنبلاطية فلا بد من التوقف عند قدرتها على الدمج الرائع بين لحظتين « اذا اذن لي ان أقول ما اضمره بصراحة فان الثورة الاخيرة اللبنانية قد جعلتني اكثر عروبة ٠٠ اي اكثر تحسسا بالواقع العربي ٠٠ ولكن في الوقت نفسه اكثر تعلقا بلبنان واستقلاله كما برز من خلال المحنة والنضال والتعاضد العربي والثورة » ٠ (١٦) ٠

هذه الخصوصية هي عنصر احراج حقيقي لليمين اللبناني ، الانعزالي منه خاصة الذي يستطيع كل شيء سوى التشكيك « بلبنانية » جنبلاط ٠٠ ولعله يمكن القول انه لا شيء يوازي « حرقة » جنبلاط من تخلف « القيادات المسيحية » سوى « حرقة » هؤلاء من انقلاب جنبلاط ضدهم ورفضه لصيغة استئثارهم المقنع ٠٠

ان هذه الخصوصية الدرزية والجبلية للحركة الوطنية هي التي تسمح ، بأقل قدر ممكن من الاضرار ، وفي ظل ضمور مواقع القوى الوطنية والديمقراطية في الوسط المسيحي ، بان تخاض المعركة القومية في لبنان بصفتها معركة بين لبنانيين وليس بين « لبنانيين اقحاح » و « لبنانيين درجة ثانية » كما كان يمكن ان يقال لو لم يكن كمال جنبلاط نفسه هو القائد الوطني وهو الغطاء الفعلي للنضال الوطني والقومي في لبنان ٠

واذا كانت السياسة اللبنانية تحسم في الجبل فليس ذلك لاسباب جغرافية او مناخية بل لان الجبل هو الحقل الفعلي للمارونية السياسية سواء لحظة تحفزها للانقضاض او استعدادها للدفاع ٠

ولذلك فان الحسم في الجبل ضدها غير ممكن من غير هذه القيادة الجنبلاطية التي تعطي الشرعية « اللبنانية » لاية مواجهة حاسمة ٠

قلنا في البداية ان استيعاب « الجنبلاطية » مهمة سياسية راهنة كما انها مهمة نظرية ٠ ويمكن ان نضيف انه من الصعب جدا العبور الى نظرية ثورية للوضع اللبناني وعلاقاته العربية من غير الانطلاق من تراث كمال جنبلاط فكرا وممارسة ٠

واذا كانت جريدة « اللوموند » كتبت عند استشهاد جنبلاط « ان المستقبل اهين في لبنان » فان الطريق الى رفع الاهانة هي ان يعود المستقبل مفتوحا على شتى الاحتمالات ولا يمكن لذلك ان يحصل الا اذا نجحنا ، الى الحد الاقصى ، في تحجيم خسارتنا للمعلم الشهيد ٠

المراجـــع :

---

١ ـ في مجرى السياسة اللبنانية ، كمال جنبلاط ٠ ص ٣٩ ـ ٤٠ ٠

٢ ـ رسالتي كنائب ٠ كمال جنبلاط (محاضرة القيت ١٩٤٦) ٠

٣ ـ لبنان في واقعه ومرتجاه · محاضرة لكمال جنبلاط ١٩٥٦ ·

٤ ـ لبنان في واقعه ·

٥ ـ لبنان في واقعه ·

٦ ـ رسالتي كنائـب ·

٧ ـ لبنان في العالم العربي · كمال جنبلاط · محاضرة بالفرنسية ١٩٤٩ ·

٨ ـ المرجـع السابق ·

٩ ـ حقيقة الثورة اللبنانية · كمال جنبلاط ص ٢٦

١٠ ـ مقدمة « ربع قرن من النضال » ص ٧٩ · كمال جنبلاط ·

١١ ـ في مجرى السياسة اللبنانية ·· ص ٨٨ ـ ٨٩ ·

١٢ ـ المقدمـة . ص ٧٣ ·

١٣ ـ المقدمـة . ص ٦٥ ·

١٤ ـ في مجرى السياسة اللبنانية ص ٥٥

١٥ ـ مجتمع جبل لبنان ايام الثورة الصناعية في اوروبا · دومينيك شيفالييه · ص ٢٢

١٦ ـ في مجرى السياسة اللبنانية · ص ٨٤ ·